رمضان سنة ١٣٧٠ المجلد الثانى والعشرون

النقد الفني

لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله

تقرير

مرفوع إلى إدارة الجامع الأزهر

بقلم

فضيلة الأستاذ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم :

تلبية لأمر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل مدير الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، تصفحت الرسالة المعنونة : « رتبوا القرآن الكريم كما أنزله الله » بقلم (يوسف راشد بوزارة العدل) ، فوجدت الكاتب يدعو فيها المسلمين إلى ترتيب سور القرآن على حسب نزولها ، ابتداء بسورة العلق ، ثم القلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم الفاتحة ، وهكذا حتى يختم بسورة النصر .

ويقول الكاتب فى توجيه هذا الاقتراح : إن ترتيب القرآن فى وضعه الحالى يبلبل الأفكار ، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن ؛ لأنه يخالف منهج التدرج التشريعى الذى روعى فى النزول ، ويفسد نظام التسلسل الطبيعى للفكرة ؛ لأن القارىء إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية اصطدم صدمة عنيفة ، وانتقل بدون تمهيد إلى جو غريب عن الجو الذى كان فيه ، وصار كالذى ينتقل من درس نحو ، إلى درس فى الحروف الأبجدية ، إلى درس فى البلاغة . الخ . الخ .

* * *

Scanned with CamScanner

أول ما نلاحظه أن هذه المقدمات لو صحت كان يجب أن تؤدى إلى نتيجة غير التى يدعوا اليها الكاتب . ذلك أنه كان يلزم بمقتضى استدلاله ألا يعاد النظر فى ترتيب السور فحسب ، بل أن تنثر نجوم القرآن كلها ، وترتب ترتيباً جديداً على وفق نزولها : المكى منها قبل المدنى ، والمتقدم فى كل منهما على المتأخر منه ، حتى يصبح المصحف صورة تاريخية لمراحل نزول القرآن .

فهل عسى أن يكون الكاتب رأى فى الدعوة إلى تعديل ترتيب الآى جرأة خطيرة تثير عليه سخط العالم الإسلامى ، فأراد أن يمهد لها بخطوة أقل خطراً فى نظره ، فدعا مؤقتا إلى إعادة تأليف السور على حسب تواريخها ، دون مساس بنظم الآى فى سورها . . . حتى إذا تم له ما أراد أتبعه بالضربة الحاسمة التى تأتلف مع مقدماته ؟ .

إننا لا نريد أن نحاسب المؤلف على أهدافه ومراميه البعيدة ؛ فالله أعلم بما فى نفسه . ولكن الذى يعنينا هو أن نسجل هاهنا السبب الذى بنى عليه تورعه عن تغيير نظام الآى ، فقد قال فى بيان المانع من ذلك : إن الرسول كان ينزل عليه بعض الآيات فيأمر بإلحاقها بسورة مضت ، حتى إنه كان يلحق بعض آيات مدنية بسور مكية .

هذا تقرير صحيح ، وهو يتضمن اعترافين اثنين ، كل منهما يؤخذ حجة عليه .

الأول — اعترافه بأن ترتيب الآى قد روعى فيه وضع آخر غير منهج التسلسل التاريخى فى النزول . فإذا كان حضرته قد استساغ فى السورة الواحدة أن تشتمل على أجزاء مكية وأجزاء مدنية ، فكيف لا يستسيغ أن تكون سورتان متجاورتان إحداهما مكية والأخرى مدنية ؛ مع أن الأمر فى السور أهون ؛ لأن كل سورة وحدة مستقلة ، ولا شك أن تجاور جسمين غريبين أخف من دخول أعضاء غريبة فى جسم واحد ، على أن تجاور المكى والمدنى لا مفر منه على اقتراحه هو أيضا ؛ لأنه سيضطر آخر الأمر إلى الانتقال من سورة مكية إلى سورة مدنية ؛ فكيف يفسر الفجوة التى ستحدث بالانتقال من آخر السور المكية إلى أول السور المدنية مع بعد ما بين اللونين فى نظره ؟ .

Scanned with CamScanner

الاعتراف الثانى — فى قوله ، إن المانع من تغيير نظام الآيات هو أن تأليفها فى سورها كان بتوقيف نبوى (بل نقول بتوقيف آلهى) ولم يكن بمجرد اجتهاد من الصحابة ، وإنه لذلك يجب أن تراعى لهذا الترتيب قدسيته ، فلا يلحقه تغيير ولا تبديل . ومقتضى هذا التعليل أن المؤلف لو علم أن ترتيب السور فى مواضعها كما هى الآن ترتيب توقيفى أيضا لحافظ عليه ، ولم يجرؤ على طلب تغييره . ألا فليعلم حضرته ـ إن لم يكن يعلم ـ أن الأمر كذلك فى السور ، وأن الأمة لم تختلف فى شأنها اختلافا يعتدُّ به إلا فى موضع واحد ، وهو جعل سورة التوبة بعد سورة الأنفال بغير بسملة ، فقال بعض العلماء إنه كان باجتهاد من عثمان رضى الله عنه ، حيث لم يصل إليه فى شأنه تعليم نبوى : أهما سورتان أم سورة واحدة ؟ فوضعهما متجاورتين من غير بسملة احتياطا . ولكن جمهور العلماء على أنه توقيفى كسائر السور ، هذا هو الموضع الوحيد الذى يمكن أن يكون للبحث فيه مجال . على أنه سواء أكان الترتيب فى هذا الموضع توقيفيا أم توفيقيا ، فانه لم يخالف سنى ولا شيعى فى التزام هذا الوضع الذى كان عليه المصحف من أول يوم .

وخلاصة القول فى هذه الملاحظة الإجمالية أن احترام قدسية الوضع المأثور يقضى بالمحافظة على النسق القائم الآن فى الآيات والسور جميعا ؛ وأن فكرة ترتيب المصحف على حسب النزول كانت تقضى بتغيير الوضع فى السور والآيات جميعا ؛ بل هى فى الآيات كانت أشد اقتضاء ، ومع ذلك قد خولفت وخضع المؤلف لهذه المخالفة فى أقوى مظاهرها . وكان مقتضى المنطق أن يقبل هذه المخالفة فى الأخف والأهون .

* * *

ونجىء الآن إلى فكرة ترتيب السور على وفق نزولها ، لنناقش الوجوه التى حاول المؤلف أن يبرر بها دعوته إلى هذا التعديل .

— ١ —

يقول حضرته : إن الانتقال من السورة المكية إلى السورة المدنية يصدم القارىء صدمة عنيفة ، ويدخله طفرة فى جو غريب منقطع عن السياق .

Scanned with CamScanner

نقول : إن كلمات « الصدمة العنيفة » و « الجو الغريب » ونحوها من العبارات المألوفة والقوالب الجارية على أقلام الكتاب لا تمنع طالب الحق ما دامت تحلق فى سماء هذا العموم المطلق الذى لا يطبق على مثال معين ؛ لأنها ما دامت كذلك يخشى أن تكون مجرد ألفاظ لا مدلول لها فى الخارج ولا فى ذهن الكاتب .

ولقد شعر المؤلف بحاجة القارىء إلى هـذا التطبيق ، فضرب لنا مثلا بوضع سورة محمد بعد سور الحواميم ، وكنا ننتظر منه أن يضع يدنا على موضع المفارقة ويبين لنا وجه الانقطاع ، بين سورة محمد والسورة التى قبلها ؛ ولكنه لم يفعل ، واكتفى بإعادة هذه الألقاب العامة قائلا : إن القائل يشعر بها ...

ونحن نقول : إن الذى يشعر به القارىء هو على عكس ذلك : كمال الانسجام ، وتمام الالتحام ، بين هاتين السورتين . وها نحن أولاء نضع يد المؤلف على حقيقة ما نقول :

فليقرأ حضرته أول سورة محمد : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » وليقرأ صدر السورة التى قبلها إلى قوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » وليقل لنا : أين المفارقة بين هذين الحديثين ؟ ـ ثم ليقرأ فى ختام سورة الأحقاف قوله تعالى : « بلاغ ! فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » وفى ختام سورة محمد قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » . ثم لينظر هل يرى أحسن من هـذا تقابلا بين البدايتين ، وتوازيا بين النهايتين ؛ وهل يرى فى إحكام هذا النسق إلا صورة أخرى من صنع الله الذى أتقن كل شىء ؟ لقد صدق الله : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؛ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير »

فإن ظن حضرته أن مجرد ذكر التمثال فى سورة محمد وعدم ذكره فى سورة الأحقاف يباعد بين السورتين قلنا له : ألم تر كيف وضعت فى آخر الأحقاف قنطرة لطيفة للعبور منها إلى هذا المعنى الجديد ؟ فلقد كان الإنذار بإهلاك الفاسقين فى آخر السورة الأولى خير توطئة للأمر بنوع من أنواع هذا الاهلاك فى السورة التى تليها .

Scanned with CamScanner

أما إن كان لا يسوغ فى ذوقه بوجه عام أن السور المكية بما فيها من أصول العقائد ، وأصول مكارم الأخلاق ، والترغيب والترهيب ، توضع فى ثنايا السور المدنية بما فيها من القوانين المدنية ، والقواعد الحربية ، وشعائر العبادة ، وسائر الشرائع التفصيلية ، فيقال له : كيف استسغت إذاً أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من آيات التوحيد أو الجزاء أو الوعظ أو غيرها من المقاصد المكية ؟ وإذا رضيت بهذا الأدراج فى السورة الواحدة فلماذا لا ترضى به بين سورة وسورة ؟

فإن كان هذا الجواب الإلزامى لا يشفى غلته فإليه الجواب الشافى :

إن هذا المنهج القرآنى فى تلوين البيان وتنويع العلوم ليس فقط من أهم المقاصد البلاغية : تشويقا الى الحديث . وتطرية للنشاط ، وترويحا للنفس من عناء العلائق البشرية ، وصعوداً بها بين الفينة والفينة الى الملأ الأعلى وإلى الحياة الباقية ؛ بل هو كذلك من أحكم وسائل التربية العملية ؛ لأن رد الفروع الى أصولها ، وبناء القواعد العملية على دعائمها الأولى العقلية والوجدانية . من شأنه أن يمكن العقول والقلوب من هضم القوانين وتمثلها ، وأن يحوّل النفوس الى قوى محركة تمد الإرادات بأقوى بواعثها .

وليس الانتقال من أحد النوعين الى الآخر كما ظن المؤلف انتقالا الى مقصد جديد أو الى جو غريب ؛ فإن مقاصد القرآن وأهدافه فى السور المكية والمدنية واحدة : وهى إصلاح العقائد ، وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات ؛ وإنما يفترق المكى عن المدنى بالإجمال والتفصيل ، وكما لا غنى للقواعد الكلية عن رسم طرقها العملية ، كذلك لا غنى للفروع عن الاستناد الى قواعدها الكلية ، والاستمداد من ينابيعها النفسية العميقة . ولذلك بنى نظم القرآن فى آياته وفى سوره على وجه من التداخل والتعانق بين الاعتقاديات والعمليات والبواعث والزواجر بحيث يظاهر بعضها بعضا على تقرير كل واحدة منها وتثبيتها فى النفوس ، ومن هنا كان القرآن « أحسن الحديث » كما وصفه الله « كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

Scanned with CamScanner

— ٢ —

أما قول المؤلف إن الوضع الحالى للسور مخل بحكمة التدرج فى التشريع : فهو انتقال نظر يدل على غفلة عظيمة وخلط بين مقامين مختلفين : مقام التنزيل والتعليم ، ومقام التدوين والترتيل . وهما مقامان قد وضعا من أول يوم لتحقيق غرضين متفاوتين، فكان أولهما يعتمد حاجات التشريع ، وثانيها يرتبط بحاجات الوضع البيانى . وإن مراعاة إحدى الحاجتين فى موضع الأخرى ليس من الحكمة فى شىء بل هو وضع للأمور فى غير موضعها .

ولما كان حضرته يميل الى الأسلوب التصويرى ، ويحب ضرب الأمثال ، وقد ضرب لنا مثلا بالأبجدية والنحو والبلاغة ، حق علينا أن نضرب له المثل الحق الذى هو أحسن تفسيرا فى هذه القضية :

رجل يريد أن يبنى بيتا لسكناه ، فجعل يجتلب تباعا كل ما هو بسبيل من تحقيق غايته ، غير مبال بأن يشترى أجزاء العُرُش والسُّقف قبل الأسس والجدران ، أو يستورد أدوات الارتفاق قبل مواد البناء ؛ متتبعا فى كل ذلك فرصة توفر الثمن لديه ، ووجود المواد فى السوق ، وسهولة وسائل النقل ، الى غير ذلك من ظروف احتياجه . وضروب إمكانه ؛ فهل من الحكمة أن يضع البنّاء هذه الأجزاء فى البنيان على حسب تواريخ ورودها ؟ أم الواجب أن يضع كل جزء منها فى مكانه اللائق به ، وفقا لرسم هندسى معلوم ، مهما خالف ترتيبه الزمانى ؟

كذلك كان نزول القرآن منجما على حسب حاجات النفوس من الإصلاح والتعليم ، وروعيت فى ذلك حكمة التدرج والترقى فى التشريع على أحسن الوجوه وأكملها . ولكن هذه النجوم فى الوقت نفسه لم تترك مبعثرة منعزلا بعضها عن بعض ، بل أريد لها أن تكون فصولا من أبواب أسمها السور ، وأن تكون هذه الأبواب أجزاء من ديوان اسمه القرآن ، فكان لا بد أن يراعى فى مواقعها من هذا البنيان معنى آخر غير ترتيبها الزمانى ، بحيث يأتلف من كل مجموعة منها باب ، ويأتلف من جملة الأبواب كتاب ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا ألفت على وجه هندسى منطق بليغ ، تبرز به وحدتها البيانية فى مظهر لا يقل جمالا وإحكاما عنها فى وضعها الأفرادى التعليمى .

Scanned with CamScanner

وكانت الآية الكبرى فى أمر هذا التأليف القرآنى أنه كان يتم فى كل نجم فور نزوله ، فكان يوضع هذا النجم تواً فى سورة ما ، وفى مكان ما من تلك السورة ؛ وكذلك كان يفعل بسائر النجوم فتفرق فور نزولها على السور ، مما يدل قطعا على أنه كانت هناك خطة مرسومة ، ونظام سابق محدود ، لا لكل سورة وحدها ، بل لمجموعة السور كلها . وهذا وحده - لو تأملناه - من أعظم الأدلة البرهانية على أن القرآن ليس من صنع هذا البشر الذى لا يدرى ما يكون فى الغد ، فضلا عن أن يعلم ما ستأتى به الحوادث فى مجرى حياته كلها ، فضلا عن أن يعرف النظام الذى سيجىء عليه البيان فى شأن هذه الحوادث ليهىء له مكانه قبل مجيئه ، فضلا عن أن يعلم أنه سيعيش حتى تأخذ كل سورة وضعها الكامل ، ويأخذ القرآن نظامه الشامل ، وحتى يكون انتقاله إلى الرفيق الأعلى عقب اعلانه بأن مهمته قد انتهت . . . هكذا يدل كل شىء على أن عناية الله الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، كانت هى التى تهيمن على تنزيل هذه النجوم القرآنية ، وعلى ترتيبها حتى بلغت تمامها ، وأن هذا الترتيب المكانى المستقل عن ترتيبها الزمانى قد كان مقصوداً لحكمة أليتة ؛ عرف هذه الحكمة من عرفها ، وجهلها من جهلها .

ولقد اعترف المؤلف بأنه من أهل القسم الثانى ، حيث قال فى صدر رسالته : « ما الحكمة فى ترتيب السور على هذا النحو ؟ » ثم أجاب بقوله : « لست أدرى » فكان ذلك منه انصافاً محموداً ؛ وكان الوضع السليم الذى يقضى به منطق هذا الاعتراف أن يسلك إحدى خطتين : فإما أن يتوقف عن البحث فى حكمة هذا الترتيب ، ويقول كما يقول الراسخون فى العلم : « آمنا به كل من عند ربنا » ، وإما أن يلتمس من أهل الذكر بيانا يكشف عنه بعض هذه الغمة . . . ولكنه لم يصنع هذا ولا ذاك ، بل أسرع فاستنبط من الجهل علما ، ومن الشك يقينا ، ودعا إلى التغيير قبل أن يتثبت من صواب قصده ، فكان كالذين قال الله فيهم « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

— ٣ —

وهنا لا يسعنا إلا أن نوجه لحضرته نصيحة رشيدة ، نمهد لها بمقدمة صغيرة .

أما المقدمة فهى : أن التفقه فى القرآن ينبغى أن يكون على ثلاث مراحل

Scanned with CamScanner

متصاعدة لا تستقدم واحدة منها عن موضعها ولا تستأخر . (المرحلة الأولى) فهم مسائل القرآن مسألة مسألة ، والتفقه فى أمرها ونهيها ، وحلالها وحرامها ، ومواعظها وعبرها ، ثم التحلى بآدابها ، والوقوف عند حدودها . (المرحلة الثانية) النظر فى جملة مسائل السورة على أنها أجزاء من وحدة مستقلة يرتبط بعضها ببعض فى نظام واحد ، ويأخذ كل منها فى هذه الوحدة وضعاً معيناً يناسبه . (المرحلة الثالثة) النظر فى مجموع سور القرآن على أنها أبواب من ديوان واحد قد قصد إلى ترتيبها فيه على هذا النحو .

مثل ذلك مثل الناظر فى علم التشريح : لا يبحث فى العلاقة بين جهاز وجهاز حتى يعرف أعضاء كل جهاز على حدته ، ولا يبحث فى الأربطة والوشائج التى بين هذه الأعضاء قبل أن يدرس تركيب العضو ويستبين أنسجته وخلاياه .

فكما أن الذى يسأل عن حكمة وضع العينين فى مقدم الوجه . ووضع الأذنين فى جانبيه ، قبل أن يعرف تشريح العين والأذن ، يعد مشتغلا بنوع من الترف العقلى قبل أن يحصل على جواهر العلم ولبابه ، كذلك الذى يسأل عن حكمة تقديم سورة وتأخير أخرى يقال له : اذهب فأتقن فهم الآية والسورة أولا ، ثم تعال فانظر فى حكمة ترتيب السور ؛ فهذا من زينة العلم وحليته ، وذاك من مبادئه وأولياته . وإن مخالفة المنهج فى هذه الدراسة يعد من عكس الوضع السليم ؛ كالجائع الذى لا يجد كسرة يسد بها رمقه ، يضيع وقته فى البحث عن الأزهار والرياحين ؛ أو كالمدين المستغرق الذى ينفق ماله على الفقراء قبل أن يؤدى حق الغرماء .

إذا تمهد هذا فلينظر صاحب هذه الدعوة الجديدة فى أى مرحلة هو من هذه المراحل ، وليضع نفسه حيث يحق له من مراتب أهل البحث والدرس .

فإن كان لا يزال بعد فى إحدى المرحلتين الأوليين ؛ وجب عليه أن يتريث فى السير إلى المرحلة الأخيرة ، وأن يكتفى فيها مؤقتاً بأن يعلم إجمالا أن الرسول صلوات الله عليه كان يرتل القرآن فى الصلوات ، وفى العرض فى رمضان وغيره ، على هذا الترتيب ، وأنه جعل « الحمد لله رب العالمين » أول القرآن ، وسماها فاتحة الكتاب فى الأحاديث الصحيحة الثابتة ، مع أنها ليست أول ما أنزل ، وأنه كان يبين

Scanned with CamScanner

لأصحابه موضع السورة من الكتاب ، كما كان يبين لهم موضع الآية من السورة . فهو إذاً وضع مقصود لمغزى يعلمه واضعه ، ولا يضر أحداً الجهل به . ومن بداله أن يجوّز تبديل هذا الوضع لأنه لا يعرف حكمته كان كمن لم يفهم حكمة وضع العينين فى مقدم الرأس ، فظن أنه كان الأنسب أن توضع إحداهما فى الوجه والأخرى فى القفا ليرى الإنسان بهما من أمامه ومن خلفه على السواء. فإن هو حاول تحقيق هذه الفكرة عملياً عاكس الطباع ، وأفسد الأوضاع . « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ». ألا وإن الشأن فى التنزيل كالشأن فى التكوين ، كلاهما من صنع الحكيم الخبير الذى أحاط بكل شىء علماً . فكما أنه لا تبديل لخلق الله ، كذلك لا تبديل لكلماته « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ».

— ٤ —

أما إن كان قد حذق مسائل القرآن مسألة مسألة ، ووقف على سر نظم الآيات فى سورها آية آية ، واشتهى بعد ذلك أن يعرف الوجه فى ترتيب السور ، فليعلم أن للناس فى ذلك مسالك من النظر بعضها أعمق وأدق من بعض .

ولعل أدنى هذه المسالك وأيسرها قول بعض المستشرقين : إنه روعى فى هذا الترتيب فى الجملة البدء بأطول السور ، ثم بأوسطها . ثم بأقصرها . فهذا وجه من النظر لا يخلو من الصواب ؛ لأن شأن المبتدىء فى التلاوة أن يكون أجم نشاطا ، وأوفر رغبة ، وأتم استعداداً لقراءة المقالات الضافية ، ثم تأخذ قوته فى التناقص تدريجا ، بسبب ما يعترى الطبع الإنسانى من الفتور والتراخى ، فقدرت السور على حسب الطاقة والنشاط : من المئين ، إلى العشرات ، إلى الآحاد . ولكن هذا التوجيه - كما ترى - سطحى يقيس السور بعدد كلماتها وجملها ، لا بالقرابة بين معانيها وأساليبها .

ولو أننا جاوزنا هذه القشرة السطحية ونفذنا منها إلى المعانى والأساليب لوجدنا ضروبا أخرى من التسلسل التعليمى والبيانى تلتحم فيه السورة مع ما قبلها وما بعدها فى أحسن وضع وأحكمه .

Scanned with CamScanner

ولقد رأينا آنفا كيف أن سورتى الأحقاف ومحمد قد تجاوبت مطالعهما ، وتطابقت مقاطعهما ، مع أنهما من فصيلتين مختلفتين فى تواريخ النزول .

هذا ضرب من الاقتران على وجه التوازى والمحاذاة .

وضرب آخر من الانسجام يصح أن نسميه نظام السلاليم ، أو أسلوب الحالّ المرتحل . وهو أن يكون المعنى الذى انتهت اليه سورة من السور هو نفسه المعنى الذى يفتتح السورة التى تليها . انظر مثلا إلى سورة الواقعة المكية كيف ختمت بقوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » وكيف حسن مجىء سورة الحديد المدنية بعدها حيث تفتتح بقوله : « سبح لله ما فى السموات والأرض » . وهكذا كان قوله : « وإدبار النجوم » جسرا إلى قوله : « والنجم إذا هوى » ؛ وقوله : « أزفت الآزفة » سُلما إلى قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ؛ وقوله : « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » سبباً ممدوداً إلى قوله : « الرحمن . . . »

وهناك وجوه أخر من التسلسل أعمق وأدق يهتدى إليها من جعل همه تدبر آيات الله .

وبحسبنا فى هذه العجالة أن نعالج الشبهة التى علقت بصدر المؤلف حين لم يفهم الحكمة فى وضع الفاتحة فى أول القرآن ووضع بعض السور القصار فى آخره ، وأن نلفت نظره إلى أن كلا من البدء والختام قد وقع موقعه الرصين ، ووضع فى قراره المكين ، وأن المؤلفين حتى يومنا هذا ما زالوا يترسمون فى مطالع كتبهم ومقاطعها هذا المنهج المثالى القرآنى .

فموقع سورة الفاتحة من القرآن كله موقع الفهرس الذى يعرض بإيجاز محتويات الكتاب قبل الدخول فى تفاصيله ؛ فكل شىء فى القرآن من الإلهيات ، والنبوات ، والمعاد ، والأعمال ، والأخلاق ، وعبر التاريخ ، قد وضعت مفاتيحه فى هذه الكلمات القليلة بأسلوب لا يبدو عليه طابع العد والسرد ، وإنما هو ماء الحياة ينساب فى جداوله غذاء للعقول والأرواح ، فلا يمل ولا يخلَق على كثرة الترداد . ثم إن لهذه السورة ـ وراء موقعها من جملة القرآن ـ موقعا خاصا من السورة التى بعدها ، هو موقع الديباجة التى تبين وجه الحاجة إلى التعليم الذى يليها . ذلك أنها

Scanned with CamScanner

صورت المؤمنين باسطى أيديهم ملتمسين الهداية من واهبها : « اهدنا الصراط المستقيم » ، فكان حتما على المسئول القريب الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، أن يتلقى هذا الدعاء بالقبول ؟ وهكذا جاءت سورة البقرة معلنة فى بدايتها أنها ستسد هذه الحاجة وستحقق هذا الملتمس : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

أرأيت لو أننا وضعنا الفاتحة على ترتيب نزولها كما يريد المؤلف بين سورتى المدثر وأبى لهب ، كيف كان ينبو بها موضعها ، وتتقطع صلتها بما قبلها وما بعدها ؛ وكيف كانت تفوت هذه المجاوبة الروحية بين الداعى والمدعو ؛ وكيف كان يصبح القرآن كتابا بغير فهرس ، بل جسما بلا رأس ؟

أما السور السبع القصار ، فإنها كلها تحمل طابع الختم والانهاء ، وإن النفَس الذى يجرى فيها لينادى بأنها كلها أشبه شىء بوصية المودِّع . فانظر إلى سورة (الكوثر) حين قضى الوحى مفصلا كيف التفتت إليه فى نظرة جامعة لتعرّف الرسول بمقدار ما انطوى عليه القرآن من النعمة الكبرى والخير العميم : « إنا أعطيناك الكوثر » ، فكان ذلك أحسن فذلكة يختم بها كتاب وينوّه بشأنه . ولما كان تعريف الرسول بنفاسة ما وصل إلى يديه ليس امتناناً عليه فحسب ، بل هو تحريض خفى له على الحرص على تلك الهدية ، لاجرم جاءت السورة التى تليها مقفية على هذا التقريظ بالأمر المؤكد بالاستمساك بهذا الدين ، وعدم التحول عنه مهما لج المعاندون : « قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ... » ؛ وكان طبيعياً بعد هذا الأمر والنهى ، وبعد تقسيم الناس هكذا إلى معسكرين منفصلين فى شأن الدين ، أن تقرر عاقبة كل منهما ؛ فأشارت إحدى السورتين التاليتين إلى عاقبة المتقين المستمسكين بما جاءهم : « إذا جاء نصر الله والفتح » ، وأشارت الأخرى إلى عاقبة أعدائهم وشانئيهم : « تبت يدا أبى لهب وتب » ، ولم يكن هذا الأخير إلا تطبيقاً لقاعدة كلية مهدت له آنفاً فى قوله تعالى : « إن شانئك هو الأبتر » . ثم كان مسك الختام أن بورك هذا الكتاب وحصّن التحصين السماوى المنيع ؛ وذلك بطلب الالتجاء إلى الإله الأحد الصمد فى أن يحفظ للعالم هذه الهداية العظمى ، برغم حسد الحاسدين ، ووسوسة الموسوسين ، الذين يلقون الشبهات فى صدور الناس ليصدوهم عن سبيل الله .

هذا نموذج من نسق السور كما رتبها الله : طاب بدءاً وختاماً ، وحسن مرتحلا ومقاماً . ولا غرو فهو تنزيل الحكيم الحميد ، ومن أحسن من الله حديثا .

Scanned with CamScanner

— ٥ —

ونعود الآن فنفترض جدلا أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف إلهى ، ولا بتوقيف نبوى ، وأنه كان من عمل الصحابة باجتهاد منهم ، ألا يكفينا فى حرمته وقداسته أنه استقر عليه إجماعهم وإجماع المسلمين من بعدهم ؟

إن اليهود والنصارى ـ وقد أصاب كتبهم ما أصابها من تعدد النسخ واختلافها ـ يحسدون المسلمين على أن لهم كتاباً موحداً لا يختلف فيه حرف واحد عند سنى ولا شيعى منذ أربعة عشر قرناً ، ولا يختلف فيه وضع سورة فى نسخة عن وضعها فى أخرى ، بل إن علماءهم يغبطوننا على وجود بعض ألفات أو لامات زائدة فى رسم المصحف ، وعلى انفصال بعض كلمات شأنها أن توصل ، واتصال كلمات شأنها أن تفصل ، ونحو ذلك من الرسوم القرآنية المخالفة للرسم الإملائى المقرر فى كتب النحو والصرف ؛ ويستدلون بيتماء هذا كله فى المصاحف الإسلامية ـ برغم اختلاف العصور وتطور العلوم ـ على مبلغ القدسية التى أحاط المسلمون بها كتابهم من أول يوم ، وعلى أن النص الذى تلقوه من نبيهم بقى كما هو لم تنله يد قط بأدنى تغيير أو تبديل ، مع وجود الحاجة إلى بعض هذه التعديلات تسهيلا على المبتدئين . أفنجىء نحن اليوم ـ بغير ضرورة ولا فائدة ، بل إفساداً واتباعا للهوى ـ فنضيع بأيدينا هذه الحجة القائمة ، ونفتح مجال الشبهة أمام العصور المقبلة ، فيقول قائل منهم : « إنه لم تبق لنا ثقة بأن هذا الكتاب بقى فى كل العصور بعيداً عن كل تبديل ؛ لأنه فى العصر الفلانى قد غيرت أوضاع السور فيه ، فلعله قد أصابته قبل ذلك تعديلات أخرى لم تصل إلينا أنباؤها » ؟

وجملة القول أن الدعوة إلى تغيير ترتيب السور دعوة لا يقرها عقل ولا نقل ؛ لأنها قبل كل شىء دعوة إلى بدعة خارقة لإجماع المسلمين يحرّف بها الكلام عن مواضعه التى وضعه الله فيها . ولأنها محاولة لن يكون من ورائها إلا إفساد النسق ، وتشويه جماله ، ونقض بنيانه المحكم الوثيق ، ثم لأنها فتح باب للشبهة فى حفظ الذكر الذى ضمن الله حفظه ، فهى إذاً دعوة لا يستجاب لها ، ولا يجوز أن يمكن أحد من تحقيقها .

Scanned with CamScanner

— ٦ —

بقى أن نقول رأينا فيما ينبغى أن يتبع فى شأن المؤلف وتأليفه .

إننا لسنا من أنصار سياسة الكبت وتكميم الأفواه والأقلام ، والتسرع بمصادرة الكتب والآراء المنحرفة فى الدين ؛ لأنها سياسة قد أثبتت التجارب فشلها ، ولأنها بدل أن تطفىء نار الفتنة تشعل أوارها ، وتغرى أهل الفضول بتلمس هذه المؤلفات كما تتلمس المهربات ؛ ولأن ضعيف الحجة هو الذى يحاول إسكات خصمه بالقوة والعنف ، وليس الضعف من صفات الحقائق الإسلامية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؛ وأخيراً لأن هذه السياسة ليست سياسة قرآنية : فإن الله تعالى أمرنا أن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن نجادل المخالفين بالتى هى أحسن ، ثم إنه سبحانه لم يترك شبهة ولا فكرة زائغة لأعداء الإسلام إلا سجلها وخلدها فى كتابه ، وقفى عليها بما يدحض باطلها . فكذلك ينبغى فيما نرى أن تقرع كتب المبطلين بالحق الذى يدمغها ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

ونرى فى موضوعنا بوجه خاص أن ترسل صورة من هذا البيان إلى المؤلف ، وأن نترك له الفرصة الكافية لقراءته وتدبر ما فيه :

فأما إن كان من طلاب الإصلاح بنصفة وحسن نية ، فسيكون هو أول من يرجع إلى الحق متى تبين له ، وأول من يحافظ على ترتيب القرآن كما رتبه الله . وإن بقيت فى نفسه بعض شبهة فسيسعى إلى حلها باستفتاء أهل الذكر فيها .

وأما إن أصر على رأيه لحاجة وهوى فى نفسه ، فلنترك دعوته تموت بعدم الإصغاء إليها . فإن نشط لنشرها وترويجها ، وتضليل السذج بمغالطاتها ، بعثنا عليه جنوداً من حجج الحق نتعقب بها فلول باطله ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة .

ونحن على كل حال واقفون بالمرصاد لكل من أراد تبديل شىء فى كتاب الله ، والله غالب على أمره ، والسلام على من اتبع الهدى .؟

Scanned with CamScanner